بريطانيا العظمى وروسيا (١)

لما انتظمتُ في السلك السياسي (دبلوماتيك) منذ ثلاث واربعين سنة حسبتُ مثل سائر ابناء وطني ان روسيا عدوة قديمة لبريطانيا العظمى لان حرب القرم التي قال لورد سلسبري اننا قامرنا فيها (٢) تركت وراءها عداء وسوء ظن متبادلين . ولكنني صرتُ بعد ذلك من اشد الداعين الى ربط عرى الصداقة بين روسيا وبريطانيا . واذا رجعنا الى تاريخ ثلاثة قرون قبل حرب القرم رأينا دلائل الصداقة بين البلادين اكثر من دلائل العداء . ابتدأت تلك الصداقة في القرن السادس عشر حينما بلغ رتشرد تشنلر مدينة ارخنجل وهو يبحث عن طريق في الاصقاع الشمالية الى الشرق الاقصى ونال من القيصر ايڤان الرهيب براءة لشركة روسية تتاجر بين انكلترا وروسيا . واهتمّ القيصر ايڤان بإحكام عرى الصداقة بين روسيا وانكلترا حتى انهُ طلب الاقتران بالملكة اليصابات . وفي آخر القرن التالي جعل بطرس الاكبر يتعلم بناء السفن في بلادنا ويستشير الملك وليم الثالث في بعض المهام السياسية واستخدم بترك غوردن والاميرال بروس كثيرين لهُ في الامور الحربية والبحرية . وكانت علاقاتنا بروسيا في زمن الامبراطورة كاترينا ودية مع ان الوزير بت قال مرةً من انتصارها على الاتراك حتى فكّر في ارسال الاسطول البريطاني لمساعدتهم عليها . ثم احكمت عرى الصداقة فعلاً في زمن القيصر اسكندر الاول لمقاومة بونابرت حتى قال الملك جورج الثالث لكونت فورنتزوف سفير روسيا في لندن ان كل انكليزي يجب ان يكون روسيًّا وكل روسي انكليزيًّا . وبعد موت القيصر اسكندر الاول اتسع مجال الخلف بين الدولتين رويداً رويداً ظنًّا ان مصالحهما متضاربة مع ان التضارب كان وهماً لا حقيقة . واحدثت حرب القرم عداء بين الدولتين لم يزُل الاَّ في خمسين سنة ثم اتفقتا سنة ١٩٠٧ فكان اتفاقهما الخطوة الاولى في التفاهم . ومدار ذلك الاتفاق على سلامة مملكة ايران وتحديد منطقتين فيها لنفوذ روسيا وبريطانيا لكن ذلك لم يزل كل اسباب الخلاف بين الحكومتين لانهما اختلفتا

(١) من خطبة لشريف السر جورج بوكنان سفير بريطانيا السابق في روسيا القاها في المعهد الملكي لبيدنبرج في ٢٥ مارس الماضي (٢) وفي الاصل راهت مختارين الحصان الذي لم يسبق

مراراً في العمل بذلك الاتفاق فبقيت ايران محور الخلاف بينهما . ولم تختلفا في اوربا مع انهُ ليس بينهما اتفاق مكتوب على مصالحهما فيها كما يظهر من تاريخ حرب البلقان سنة ١٩١٢ و١٩١٣ والفضل في ذلك وفي منع الحرب الاوربية حينئذٍ للسر ادورد غراي وللمسيو سازونوف . لكن المسيو سازونوف بيَّن لنا ان شدَّة الارتباط بين المانيا والنمسا وايطاليا تساعد المانيا على تنفيذ اغراضها بالعنف ولا تنصرف عن هذه الخطة الاَّ اذا علمت ان التقرُّب الثلاثي بين بريطانيا وفرنسا وروسيا صار محالفة هجوم ودفاع . ولما ارسلت النمسا بلاغها الاخير الى الصرب على اثر مقتل ولي العهد عاد المسيو سازونوف يلحُّ على الحكومة البريطانية لتجاهر باتحادها مع فرنسا وروسيا حاسباً ان ذلك هو السبيل الوحيد لمنع الحرب فقلتُ لهُ ان الحكومة البريطانية لا يسعها ان تعمل ذلك وان فعلتهُ فالحرب لا تمنع لان المانيا مصممة عليها . وقد علمت من مصدر ثقة انها كانت تخشى ان روسيا تعمل بالبلاغ الاخير الذي ارسلتهُ اليها وتعدل عن تعبئة جيشها فتمتنع الحرب

لما وصلت الى بطرس برج سنة ١٩١٠ كان الوئام لا يزال جديداً بين روسيا وبريطانيا العظمى وآثار الخلاف السابق لم تكن قد امحت تماماً . ثم جاءت الحرب فاحكمت رأْد الوئام وختمتهُ بدم الامتين . وعظم اعجابنا بالجنود الروسية على اثر الفوز الذي فازتهُ في شهور الحرب الاولى . ولا شبهة في ان روسيا كانت اكبر سند لنا بكثرة رجالها ووفرة مواردها ولاسيما حينما كانت جيوشنا والجيوش الفرنسوية مرتدة القهقرى نحو باريس . لكن في حكومة روسيا مغامز ظهرت سريعاً فان روسيا دخلت الحرب مغلولة اليدين والرجلين لان كل سلطتها كانت محصورة في وزارة غير قادرة على ادارة دفة الحرب ولا على تنظيم موارد البلاد فمعاملها ومواصلاتها لم تكن قادرة على صنع ما يلزم لجيشها وشعبها ولا على ايصال ما تصنعهُ الى الجيش والشعب . والبلاد مفصولة عن كل البلدان الاَّ في بعض شهور السنة فلا يمكن امدادها بما تحتاج اليهِ من الخارج . وقد كان اعتماد الحكومة الاكبر على كثرة رجالها فاسرفت فيهم اسرافاً شديداً حتى نالت ما نالتهُ من الفوز في بداءة الحرب . والحال قلَّ ما لديها من القنابل والبنادق والذخيرة حتى امسى الجيش الروسي عزلاً من السلاح امام العدو واضطرَّ كثيرون من رجاله ان يحاربوا بالعصي والحجارة . وتوالت الكسرات آخذاً بعضها برقاب بعض فقترت

همة الامة وضعفت حماستها التي اجابت بها نداء القيصر في اول الحرب. وكان عمّال الالمان دائبين على زرع بزور العداء بين روسيا والحلفاء مدعين اننا نحن زججناها في الحرب وتركناها تتحمل ويلاتها وتعاني مشاقها. وقد بذلتُ جهدي في نفي هذه الاكاذيب مبيناً مقدار المهام الملقاة على عاتق انكلترا ولكن بقي الاستياء منا شديداً في بتروغراد. غير اني لما ذهبت الى القرم في اوائل سنة ١٩١٦ لقيت من دلائل الولاء الشديد حيثما سرت ما أكّد لي حب السكان لنا هناك. ولما زرت موسكو في عيد الامبراطورية البريطانية قوبلت باعظم مظاهر الحفاوة الدالة على شدة صداقة السكان لنا ومُنحت حرية موسكو وهو شرف لم يعطهُ قبلي الا ثمانية من الروس وواحد من الاميركيين وجُعلت عضواً اكراميًّا في جامعة موسكو. وموسكو كما لا يخفى قلب روسيا النابض فيها فاكرامها لي اقنعني ان روسيا تضمر لبلادنا الاكرام والحب المتبادل. ولكن تبيَّن لي بعدئذٍ انني افرطت في تفاؤلي او ان ما حدث حينئذٍ كان كمد البحر الذي اذا بلغ حدهُ عقبهُ الجزر

والخسائر الكبيرة التي لحقت الجيش الروسي والضيق الذي اصاب السكان من قلة ضروريات المعيشة لم تبقِ للحكومة هيبة في عيون رعاياها فطلبوا ان تسلَّم القيادة لاناس يثقون بهم. ولما استلم القيصر القيادة العامة بعد سقوط وارسو تطرَّف في اجابة مطالب الشعب وعيَّن بعض وزرائهِ من الرجعيين ووعد بان يفتتح الدوما بنفسهِ وهي اول مرة فعل فيها ذلك فقويت آمال الشعب لتخيب سريعاً. ولم تحسَّن الموقف الحربي عمَّا كان في العام السابق قوي شأن الرجعيين. وكان مركز سازونوف وزير الخارجية لا يزال منيعاً لان القيصر سندهُ وهو من خيرة الرجال العاملين على زيادة الحرية للشعب ومن دعائم الحلفاء في روسيا. ولكن جاء في موظف سام ذات يوم في شهر يوليو وقال لي ان سازونوف سيعزل ويعين ستورمر مكانهُ الا اذا توسَّط احد لجعل القيصر يعدل عن ذلك. فقلقت من هذا الخبر وعملت ما لم اعملهُ من قبل وهو اني ارسلت تلغرافاً الى القيصر وهو في مركز القيادة العامة اتوسل اليهِ ان لا يزيد مشاكل الحلفاء بعزلهِ الوزير الذي لقوا منهُ اكبر مساعدة وهم فيهِ اتم الثقة. لكن مشيري القيصر منعوهُ من اجابة طلبي

وستورمر رجعي ميَّال الى المانيا يكره محالفة روسيا لدولة ديموقراطية لئلا تعدي بعدوى الديموقراطية. وكان القيصر قد انهمك بامر الجيش والقيادة العامة

واهمل مهام الحكومة. فعامل ستورمر القيصرة كأنها قائمة مقام زوجها وبواسطتها ادار دفة السياسة الروسية على هواه فأوصلها الى الثورة في اقل من نصف سنة مع انهُ سقط قبلما حدثت الثورة فعلاً. وتوالى الوزراء الرجعيون الواحد بعد الآخر فثار ثائر الامة الروسية واعربت عن غيظها الشديد في كل انحاء الامبراطورية — غيظها من القوى الخفية التي كانت تعمل وراء العرش وتدفع بالبلاد الى هاوية الدمار. وكان من نتائج هذا الغيظ قتل راسبوتين ولكن قتلهُ زاد في عناد القيصر. وجاء الوزير بروتوبوبوف بعد ستورمر فزاد في اغاظة الشعب وايقاد النار التي كانت مخبوءة تحت الرماد. الا ان زعماء الدوما لم يكن لهم يد في الثورة بل كان غرضهم ان تسير الحرب سيراً حسناً وان تعمل الحكومة الاعمال التي تعيد ثقة الامة بها. ولا كانت الثورة من اعمال جمعية سياسية سرية ولا من تدبير خاص بل نتجت من الشعب مباشرة لانهُ كان قد أُرهق حتى جاوزت ارزاؤهُ حد الاحتمال فابتدأت الثورة بنهب الخبز من بعض الافران وانتهت بتمرد جنود الحامية في بتروغراد. ولم يُخبَر القيصر باسباب ما حدث فبعث بالجنود الى بتروغراد لقمع التمرد بدلاً من ان يذهب بنفسهِ ويرفع ظلامة شعبهِ فكانت النتيجة انهُ فقد عرشهُ

وقد زعم الالمان انهُ كان لي في الثورة يد. وهو زعم فاسد فاني على الضد من ذلك بذلت اقصى جهدي في منع الثورة باقناع القيصر ليزيد حرية شعبهِ. وقد فعلت ذلك حباً بالقيصر نفسهِ لانني كنت احترمهُ واود خيرهُ لكليف امين لبلادي. وحباً بمصلحة الحلفاء لان روسيا كانت ضرورية جداً لهم في هذه الحرب. وحباً بمصلحة روسيا نفسها لانها لم تكن مستعدة لتغيير كبير وثلاثة ارباع شعبها اميون والسبيل الاسلم لهم ان يتدرجوا في الحكم النيابي تدرجاً

وفي يناير سنة ١٩١٧ بذلت اقصى جهدي لاقناع القيصر انهُ في خطر شديد واخبرتهُ ان أجراء الالمان يستخدمون حاشيتهُ لاقناعهِ باتباع سياسة العنف وتوسلت اليهِ ان يعزل بروتوبوبوف ويسترد ثقة شعبهِ بتعيين وزير يثق الشعب بهِ وقلت لهُ انني اتيت لاحذرهُ كما احذر اعز اصدقائي اذا رأيتهُ ماشياً في ليلة ليلاء على جرف هار ولا توسل اليهِ ليقف ويرتد قبل فوات الفرصة وليختار الطريق الذي يصل بهِ الى الفوز والسلام داخلاً وخارجاً. فشكرني لانني مهتم بامره الى هذا الحد ولكن كانت سلطة غيري عليهِ قد بلغت منهُ حداً أن

منعتهُ من العمل بنصيحتي لاسيما وانهُ كان يحسب ان السلطة التي ورثها من اسلافهِ يجب عليهِ ان يورثها سليمةً لاعقابهِ

ولما هدمت الثورة كل بناء الامبراطورية الروسية هدماً لا يرجى معهُ اعادة بنائها رجوت ان تصير حكومة البلاد دستورية فيزول البعد الذي كان بين حكومة بلادي المتيدة وحكومة روسيا المطلقة ولكن خاب رجائي كما خاب رجاء الذين ترجوا ذلك مثلي فان الحكومة المؤقتة التي نشأت بعيد الثورة لم يكن لها شيء من السلطة فتغلَّب عليها السوفيات اي مجلس العمال والجنود الذي كانت فاتحة اعمالهِ العبث بالنظام العسكري بمنع الجنود من تحية ضباطهم وبجعل تأديب الجنود من اختصاص لجان من الجنود انفسهم . وكل تاريخ الاشهر الثمانية التالية خصام بين الجنود والضباط . وقد عمي هذا الامر جدًّا لعلمي بتأثيره الشديد في الحرب فحذَّرت رجال الحكومة من عاقبتهِ وقلتُ لهم انهُ اذا بقيت الحال على هذا المنوال فالحرية التي نالتها روسيا لا تدوم وكرَّرت هذا التحذير لكرنسكي غير مرة لما كان رئيساً للوزراء . وكانت علاقاتي مع الوزارات على تمام المودة ولكن لم يكن في الامكان التوفيق بين سياسة وزراء اشتراكيين وسياسة حكومات الحلفاء فان اكثر اولئك الوزراء كانوا يعتقدون ان الجيش الحسن الانتظام الخاضع لضباطهِ قد ينقلب يوماً ما على رجال الثورة ويوقع بهم . وكانوا يحسبون انهُ يمكن التغلُّب على الالمان وانهاء الحرب بجعل العامة من الشعب الالماني ينفصلون عن حكومتهم

ثم ان الامة الروسية كانت قد قاست اشد الارزاء فملت الحرب وكان ثوار البلشفيك يفسدون نظام الجنود بقولهم لهم انكم تُرسلون الى القتال ارضاء لجشع الحلفاء . ولو اتفق كرنسكي وكورنيلوف لاستطاعا تخليص البلاد ولكن الخلاف كان مستحكماً بينهما فان كورنيلوف كان يعتقد ان جيشاً بلا نظام لا يفرق عن غوغاء تحمل السلاح وانهُ يمكن اعادة النظام الى الجيش من غير التجاء الى العنف . واما كرنسكي فكان يقول ان كل عمل يراد بهِ اعادة النظام هو بمثابة العَوْد الى الحكم القيصري القديم ويفضل الاعتماد على الاقناع بالنصح والارشاد . واستتباب الخلاف بين هذين الرجلين قضى على آخر امل امتهُ ببقاء روسيا تحارب معنا . ومن ذلك الوقت خرجت دفة السياسة من يد كرنسكي واضاع الفرصة

الوحيدة التي سنحت له للقضاء على البلشفيكية في اول امرها . وقد بقي الى آخر عهده يحسب ان زمامها في يده ولكن لما حقت الساعة لم يبقَ في يده شيء

لما صارت السلطة في يد البلشفيك تغيرت العلاقة بيننا وبين روسيا . نعم ان الشعب بقي معنا ولكن حكومته ابدت لنا العداء فان البلشفيك ادعوا اننا نحن سبب الحرب وحاولوا اثارة الفتنة في بلاد الهند واقناع الهنود بالخروج علينا . وذاكروا اعداءنا لكي يصالحوهم ناقضين بذلك العهد الذي تعاهد به الحلفاء في آخر سنة ١٩١٤ . وصرفوا الجيش الروسي قبل ان يتم الاتفاق بينهم وبين الالمان على الصلح وبعد ان اقسموا انهم لا يصالحون الا صلحاً لا ضمّ فيه ولا غرم . ثم اشتروا الصلح من الالمان بالثمن الذي فرضهُ الالمان عليهم وهجموا على سفارتنا وقتلوا الكبتن كرومي وسجنوا الرعايا البريطانيين الابرياء وعاملوهم معاملة تقشعر منها الابدان واضطروا الباقين من رجال السفارة ان يغادروا روسيا الواحد بعد الآخر

وكان لنين قد اعلن انهُ الآمر الناهي وانهُ لا بدَّ لهُ من الجري على سياسة لا تشفق ولا ترحم وانهُ سيأخذ بهذه السياسة الملاك وغيرهم من اعضاء الجمعيات الاشتراكية الذين ابوا ان يجاروهُ وحل الجمعية الدستورية لان الذين انتخبوا لها من غير البلشفيك كانوا مضاعف الذين انتخبوا من البلشفيك . ومنع حرية الصحافة وحرَّم الاجتماعات العمومية وادخل صنائعهُ في كل المجالس البلدية . وهو شديد الشكيمة شديد التعصب لمذهبهِ فاستخدم روسيا مرقاةً للوصول الى نشر المبادىء الاشتراكية المتطرفة وجعلها تشمل المسكونة وضحّى في هذا السبيل بلادهُ وكل ما هو صالح فيها وغسلها في بحر من الدم والنار وحوَّلها الى فوضى منظمة . وهو العقل المدبر لهذا التنظيم وما تروتسكي وغيره من اعوانهِ الا آلات في يده . ولقد اخذ الاموال من المانيا لتساعده على تنظيم هذه الفوضى ولكنهُ انما فعل ذلك لغرض يرمي اليهِ لا كما فعل غيرهُ من الذين اشترتهم المانيا باموالها

واول مطلب شاقّ رأى نفسهُ مضطرًّا اليهِ هو قيامهُ بالوعود التي وعد بها الفلاحين والعمال حتى التفُّوا حولهُ . فالفلاح معبودهُ حب امتلاك الارض ولا بدَّ من تمليكه اياها فامر لنين باستصفاء كل املاك الاسرة المالكة واملاك الكنائس وكبار الملاك فهجم الفلاحون عليها ليقتسموها . ثم امر بعد اشهر قليلة بان الاراضي كلها وما فيها من المواشي والآلات الزراعية يجب ان تكون ملكاً

مشاعاً للامة لا يستأثر احد بشيء منها. لكن في البلاد ولا سيما سيبيريا فلاحين كثيرين يملكون اراضي خاصة بهم فقاتلوا من جراء ذلك. وكانوا قد رفضوا ان يبيعوا غلاتهم بنقود من الورق لا قيمة لها في عيونهم فامرت الحكومة بمصادرة الغلات فثاروا عليها في ولاية موسكو فاوقعت بهم واخمدت ثورتهم بالعنف والقسوة البربرية وعيّنت لجان الفقر وسلحتهم بالبنادق والرشاشات (١) في اكثر الولايات الزراعية فكانت النتيجة ان الفلاحين الذين كانوا منذ ثمانية اشهر بلشفيكيين كلهم تقريباً انقلبوا على البلشفيكية وهم يتمنون الآن ان يعاد النظام الى البلاد لكي يستطيعوا ان يبيعوا غلات ارضهم ويشتروا ما تمس حاجتهم اليه من الضروريات

وما جرى في امر الفلاحين جرى في امر العمال فان حكومة لنين وضعت ادارة المعامل في يد لجان من العمال انفسهم بعد ان امرت بان تكون المعامل ملكاً مشاعاً للامة فكانت النتيجة الخراب التام والضرر الشامل فانها رفعت اجور العمال حتى لم يبق ربح للمعامل بل خسارة لان ثمن ما تصنعهُ لا يكفي لهذه الاجور فظلت تعمل الى ان نفد كل ما عندها من المال الاحتياطي ثم اضطرت ان تقفل ابوابها وتبطل العمل. ولم يستفد العمال من زيادة اجورهم لان الحاجيات غلت كلها غلواً فاحشاً فصارت حالهم اسوأ جداً مما كانت قبل زيادة الاجور. وعليهم الآن ان يختاروا بين الانضمام الى الجيش الاحمر او الرجوع الى قراهم للموت فيها جوعاً. ولما رأى لنين ذلك قال للعمال انهُ سيضطرهم الى الرجوع الى المعامل والعمل فيها كالعبيد نهاراً وليلاً ولا يعطيهم الا الاجرة المناسبة لما يعملونهُ. واضطر ايضاً ان يعود الى سائر الجمعيات الاشتراكية ويخطب ودها بعد ان ناصبها العداء لكنهُ لم يفلح كما ظن لانهُ لم يبق زعماء لتلك الجمعيات يديرونها اذ اضطر زعماؤها ان يهربوا لينجوا من القتل. ونجا زعيم من هؤلاء الزعماء في آخر نوفمبر الماضي وفرَّ من روسيا فاخبر في ان الاشتراكيين المعتدلين يودون كلهم تقريباً ان يتوسط الحلفاء ويساعدوهم على تخليص البلاد من البلشفيك على شرط ان لا ترد الاراضي الى اصحابها الاصليين. وبقاء السلطة في يد البلشفيك ليس سببهُ انهم اقوى من غيرهم بل سببهُ ان الطعام في ايديهم فالذي لا يتحدهم يموت جوعاً ستأتي البقية

(١) ضاق المترجمون ذرعاً في ترجمة المترايوز والبنادق الآلية Machine-guns لكن العامة الذين رأوا فعلها اطلقوا عليها كلمة وشاشة فاخترنا الجري عليها